

أبو الحسن علي بن الحسين النذوي

منهج فضل في الإصلاح

للدعاة و العلماء

ملتزم النشر و التوزيع
المجمع الاسلامي العلمي - ندوة العلماء
لكهنو (الهند)

www.abulhasanalinadwi.org

من مطبوعات المجمع الاسلامى العلمى

رقم - ٥٠

المطبعة الندوية (مؤسسة الصحافة و النشر)

ندوة العلماء - ص ٠ ب ٩٣ - لكهنؤ (الهند)



كلية الناشر

هذه الرسالة في الأصل محاضرة ألقاها سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي في شعبان سنة ١٣٨٩هـ في قاعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أمام طلبة الجامعة و تلاميذ كلية الدعوة المرشحين للدعوة الإسلامية في أفريقيا و غيرها من القارات ، و كان حفلا مشهوداً حضره أكبر عدد من الطلبة ، و أكثر أساتذة الجامعة ، و كبار المسؤولين ، و قد جاءت في هذه الكلمة المرتجلة لفئات عميقة و ملاحظات دقيقة عن تاريخ الدعوة الإسلامية و سيرها و تجاربها في الهند ، لا يجدها القارئ إلا في كتب التاريخ المبسوط ، مشورة مبعثرة ، عابرة غامضة ، قد لا يتبها و يعرف قيمتها . و هي ككسفة مستفيضة أخذنا منها ما يتصل بمنهج الإصلاح و الدعوة في الحكومات الإسلامية ، و هو لب لباب الموضوع و جوهر المحاضرة ، و قد يمكن الاستفادة منها — إذا حالقنا التوفيق — في ظروفنا المتغيرة و تجاربنا التي مررنا بها في عهدنا الأخير .

الناشر

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

اختار الله للدعوة الاسلامية في الهند أصحاب قلوب رقيقة ، لأن الشعب الهندي هو رقيق الشعور قوى العاطفة ، يفعل فيه الحب و الحنان ، ما لا يفعله المنطق و البرهان ، فاختار الله للدعوة الاسلامية في الهند ، أصحاب قلوب لينة خفاقة ، و عيون دامعة فياضة ، هؤلاء الذين كانت عيونهم تدمع لكل مفعوج منكوب ، و كانوا يؤون كل طريد و شريد ، ويلجئون كل من أقصته الآسرة و طردته القرية . كان الفرق بين البرهمي و غير البرهمي أكبر من الفرق بين الانسان و الحيوان ، إن الكتب التي تناولت هذا الموضوع ، (النظام الطبقي والاجتماعي في الهند) كثيرة (١) ، ثم كان غير البراهمة طبقات ، ثم هنالك سيدات مات أزواجهن فكن يحرقن أنفسهن مع أزواجهن وكان ذلك من العادات التي تفردت بها الهند .

(١) ليراجع للتفصيل كتابا المؤلف « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، و « السيرة النبوية » .

فكان أولئك الربانيون يلجئونهم في ملاجئهم العلمية
والروحية ، يطعمونهم معهم ، ويجلسونهم على مائدة واحدة ،
ما كان هنالك من المؤلف أن يؤاكل إنسان إنساناً ، و لا
يزال هذا في الهند ، إذا سافرت في القطار ترون صديقين
من غير المسلمين يتحدثان و يتلاطفان ، فإذا حضر الطعام
صرف هذا وجهه إلى الغرب ، و هذا وجهه إلى الشرق ،
بدأ يأكل هذا و بدأ يأكل ذلك ، كأنه لا لقاء بينهما ،
فهؤلاء الدعاه و المربون كانوا يعاملون أولئك اللاجئين
معاملة الأولاد وكانوا يجلسونهم على مائدة واحدة ، ويفضلونهم
على أنفسهم و أولادهم ، وبذلك انتشر الاسلام انتشاراً هائلاً
في هذه البلاد التي تشبه قارة .

و كانوا مع هذا الزهد و الابتعاد عن قبول الصلات
الملوكية ، يشرفون على الحكومة و يراقبونها من بعد ، كالنار
يصطلي بها الانسان و يستدفي بها ولا يمسها فتحرقه ، و كان
ذلك إلهاماً من الله تعالى .

أنا أؤمن بأن الداعية المخلص ، لا يكون داعية إلا

إذا كان ملهما مؤيداً من الله ، فكانوا يراقبون الدولة و يراقبون اتجاهاتها و ميولها ، و يرون هل المجتمع الاسلامى إلى خير أم إلى شر ، و إلى صلاح أم إلى فساد ، وهل هناك اتجاه موافق للاسلام أم معارض للاسلام ؟ فإذا كان هناك اتجاه معارض للاسلام جروا الحبل من بعيد و باحتياط ، و أشاروا على الملك بما هو صالح للعباد و البلاد ، و بما فيه تأييد للدين و تقوية للمسلمين ، و قد تكون لهم يد خفية فى اختيار ملك أو عزل و نصب .

فإذا سنحت لهم فرصة لكلمة حق عند سلطان جائر ، كانوا من أفصح الناس و أشجعهم ، أحكى لكم قصة واحدة : إن محمد تغلق عرف فى تاريخ الهند بالجبروت و الطغیان — بل بالجنون و الهوس — و يسمى فى تاريخ الهند « السلطان العاقل المجنون » ، إنه كان رجلاً علامة ، و هو أول ملك من ملوك الهند اطلع على مؤلفات شيخ الاسلام ابن تيمية و أعجب بها ، إنه كان فى آخر القرن الثامن و كان شديد الانكار على المنكرات و البدع ، و قد عسكر

مرة بقرب عالم رباني اسمه الشيخ قطب الدين منور ، وجاء العلماء و الشيوخ يسلمون عليه ، ولزم الشيخ بيته فلم يأت ، و غضب الملك و طلبه إلى دهلي عاصمة البلاد ، ولما حضر البلاط و دخل الديوان رأى الأمراء و الوزراء و الحكام و رجال البلاط و اقفين سماطين (١) متخشعين مسلحين ، في هيئة تنخلع منها القلوب ، و كان معه ولده نور الدين و كان حديث السن لم يزر بلاط الملك في حياته ، ففرع لهذا المنظر الغريب و امتلاً رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلاً : يا ولدى العظمة لله !، يقول نور الدين : إني استشعرت في قوة غريبة بعد هذا النداء ، و زالت الهية من نفسي و ذابت ، و بدأ الجميع عندي كأنهم قطع من صان أو معز ، و سأل الملك الشيخ و عاتبه قائلاً : « إننا مررنا بزوايتكم فلم تشرفونا بزيارتكم و موعظتكم ، فأجاب الشيخ : إن هذا الفقير لا يجدر بمقابلة الملوك ، إنه يعيش في عزلة و يدعو للملك و لجميع المسلمين ، فعليكم أن تعذروني في هذا الأمر ، و بعد انصرافه قال الملك لوزرائه : إنه

(١) أى صفين متقابلين .

صاحح كثيراً من الشيوخ و العلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفاً و إشفاقاً ، أما هذا الشيخ فما وجدت في كفه لنا و ضعفاً ، و ما رأيت في يده ارتعاشاً ، بل صاحني بقوة و حرارة زائدة و اعتزاز نفس .

و قدم إليه الملك مائة ألف د تنكة ، (قطعة ذهب) فقال الشيخ سبحان الله تكفيني أقتان من أرز و سمن بفلس واحد ، ماذا أفعل بهذا المال الكثير ؟ و لكن قيل له إن الملك يسخط إذا لم يقبل هذه الهدية وينقم منه ، فقبل الشيخ ألني روية و قسمها بين إخوانه و أصحابه و ذوى الحاجة ، هذه قصة من القصص الكثيرة (١) .

و الآن أتحدث إليكم عن دور الاصلاح و التنظيم ، لما رسخت الحكومة الاسلامية في الهند و انتشر الاسلام انتشاراً واسعاً في جميع أنحاءها ، تأثر المسلمون بمواطنيهم الهنود ، فاتقلت إليهم عادات الجاهلية ، و انتقلت إليهم بعض العقائد الخرافية ، و تسرب إليهم الشرك و البدع

(١) نقلنا القصة بطولها من كتاب المؤلف « المسلمون في الهند » ، إتماماً للفائدة و إكمالاً للحديث .

و تغلغت فيهم الفلسفة اليونانية و الفلسفة الهندية القديمة ،
وعن طريق هاتين الفلسفتين انتقلت إليهم اتجاهات ونزعات
لا يقبلها الاسلام ، فهناك جاءت مرحلة الاصلاح والتنظيم ،
ولما جاءت هذه المرحلة ، قيض الله في هذه المرحلة الدقيقة
رجالا غياري متألمين للاسلام ، وهبوا نفوسهم و أرواحهم
و مواهبهم و ذكاهم لقيادة المسلمين في هذه البلاد .

و اتفق أن أكبر ملك عرفه تاريخ الهند ، هو الملك
المغولي السلطان جلال الدين أكبر بن همايون بن بابر مؤسس
الحكومة المغولية في الهند ، اتجه اتجاهاً معارضاً للاسلام ،
ونشأ فيه عداة للاسلام و عناد شديد للدين الاسلامي
و صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، و عطف شديد
على البراهمة و عقائدهم و عاداتهم .

هذه مرحلة أدق من مرحلة الجاهلية المحضة ، إذا
كانت بلاد لا تعرف الاسلام فقضيتها قضية سهلة ، إذا
تعرفت بالاسلام فقد تعرفت بالاسلام الحقيقي و الدين
الخالص ، ولكن إذا ثار الملوك و الحكام على الاسلام ،

و انحرفوا عن الجادة و ارتدوا عن الاسلام أو عارضوه ،
فها العقدة الكبرى .

إن « أكبر » ، كان أولاً مغرماً بدراسة الديانات ، كان
من سوء حظه أنه كان أمياً أو شبه أمى ، لم تسمع حياته
الخاصة بدراسة و ثقافة — و لكن مع ذلك عنده غرام
بالمقارنة بين الديانات — و الانسان إذا كان جاهلاً وليست
عنده الوسائل الكافية للمقارنة الآمنة ، والوصول إلى النتائج
الصحيحة ، فهذه محنة عظيمة ، و هذا الرجل كان يجمع بين
طبعتين متناقضتين ، جاهل ولكنه كان مفرط الذكاء ، سريع
الانفعال عصبياً ، و مغرماً بالمقارنة بين الديانات ، فجمع علماء
أهل السنة و علماء الشيعة و علماء الطوائف الاسلامية التي
انحرفت عن الاسلام ، و علماء البراهمة و البوذيين والمجوس
و المسيحيين ، و كان يثير موضوعاً خلافاً يناظر فيه هؤلاء
العلماء فكانوا يتناقرون كالديك و يتناطحون كالتيوس ، و كان
يتفرج على ذلك ويتسلى به ، كما كان الملوك في العصر القديم
يتفرجون على قتال التيوس و بعض الطيور ، هذه المناظرات

قد غرست في قلبه الشكوك و صار ينسلخ عن الاسلام
رويداً رويداً حتى انسلخ تماماً .

ثم العامل الثاني الذي أثر فيه و عدل به عن الاسلام ،
هو حب العلماء الزائد للدنيا و تنافسهم في الجاه و المال ،
كان في بلاطه علماء يعتبرون من كبار العلماء في عصره ،
ولكنهم مع الأسف الشديد ، كانوا متنافسين تنافساً شديداً
في الجاه ، و كان كل واحد يريد أن يستأثر بالملك و كان
بعضهم ادخر مالا عظيماً ، و كان بعضهم استخرجت من
مقبرة أسلافه لبنات من ذهب كان قد خبأها ، فلما اطلع
هذا الرجل على هذه المناظرات و اطلع على مواضع الضعف
في هؤلاء العلماء الكبار ، الذين كان أحدهم المحدث الأكبر
و الآخر قاضى القضاة و المفتى الأكبر ، رأى أنهم لصوص
الدنيا ، و أنهم لا يقلون عن عباد الدنيا في حب المال ،
فانسلخ عن الاسلام .

و أقول لكم - أيها الاخوان - عن تجربة و اختبار ،
إن الذى يرتد عن الاسلام يكون أكثر عناداً للاسلام ،

و أكثر معارضة للاسلام و المسلمين من الذين ليس لهم عهد بالاسلام ، و من أتباع كل ديانة ، مسيحين كانوا أو يهوداً ، و هذا الذى تشهدونه اليوم فى بعض البلاد العربية و الاسلامية ، التى يحكمها الذين ولدوا فى الاسلام و نشأوا فى بيت مسلم و فى بيئة مسلمة ، ثم كرهوا الاسلام و أبغضوه لتأثير أجنبي أو بفعل ثقافة أو فلسفة ، فهم دائماً أشد عناداً للاسلام من الهنادك و المجوس و المسيحين .

و نعود إلى القصة فقول ، إن « أكبر ، عادى الاسلام عداءً شديداً ، حتى يروى عنه أنه كان لا يستطيع أن يسمع اسم محمد ، كانت تثور ثأرتة إذا سمع هذا الاسم الكريم ، فكان لا يملك نفسه ، و قد أصدر الأوامر الشديدة بأن كل من سجل عليه أنه ذبح بقرة فانه يقتل ، إنه أحل الخنزير و أحل الخمر ، و لكنه حرم ذبح البقر ، و حرم على رجال بلاطه أن يسموا أولادهم محمداً أو أحمد . هذه فترة دقيقة جداً ، تقرر مصير الهند و تقرر مصير المسلمين فى هذه البلاد التى فتحوها بدمائهم ، هذه البلاد

التي هجروا فيها وفي سبيلها أوطانهم ، هذه البلاد التي عاشت
فيها أجيال ، ونبع فيها علماء و مؤلفون ، ونهض فيها دعاة
ومربون هل يتجرد المسلمون فيها عن دينهم ؟ هل يلفظ
فيها الاسلام نفسه الأخير ، هل يكتب عليه الفناء ؟

هنالك قام رجل له فضل على كل مسلم في الهند ،
هو الشيخ أحمد بن عبد الأحـد العمري السرهـندي

(٩٧١ — ١٠٣٤ هـ) — رحمه الله تعالى — وكان عالماً

كبيراً مشاركاً في علوم كثيرة ، وكان إذا أراد أن

يكون له مركز كبير علمي كان يمكن أن يتصدر مجلس السلطان

أكبر ، وكان هناك من دونه في العلم و من دونه في

الذكاء ، ولكنه ملكته فكرة واحدة : حرام على هذه البلاد

أن ترتد عن الاسلام و أن يحرم المسلمون فيها حقهم أن

يعيشوا كراماً أحراراً شرفاء ، يزاولون شعائرهم الدينية ،

ويحافظون على خصائصهم وشخصيتهم الاسلامية ، ملكته هذه

الفكرة حتى حالت بينه وبين كل لذة ، فوهب نفسه وحياته

لها ، ترونه في رسائله (وأصلها بالفارسية ، وقد نقلت إلى العربية)

كيف يبكي دماً وكيف يبكي على الاسلام - إن رسائله دافقة

بالحياة، الانسان إذا قرأ هذه الرسائل يشعر بأن فيها شعلة إيمانية ،
 ولهباً من إيمان وصراحة وحزن، فيقول في إحدى رسائله ،
 كتبها إلى أحد كبار الدولة « واويلاه ، واحزنناه وامصبتناه ،
 إن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام الذي هو حبيب رب
 العالمين، بهذا المكان من الذل والهوان، والكفار والمشركون
 و الوثنيون يتمتعون بالحرية ، و هذا في عهد رجل يسمى
 بالاسلام ، إنه ينزل عن مركز الحكم ، يجلس بعيداً
 ولكنه لم يزل متصلاً برجال البلاط والأمراء ، يكتب إليهم
 الرسائل البليغة التي تسيل عذوبة ، و تشتعل ناراً في وقت
 واحد، و التي تعتبر من أقوى الرسائل الدعوية والاصلاحية
 في المكتبة الاسلامية . إنه لم يزل يشير غيرتهم الايمانية
 و يلهب فيهم جمره الايمان التي كانت مدفونة تحت الرماد
 فيزيل عنها التراب ، فيقول للواحد منهم « أنت مسلم
 والحياة عارضة، والملك لا يعيش دائماً، وهذا الحكم لا يدوم،
 اتق الله في نفسك ، اتق الله في أمتك ، اتق الله في بلادك ،
 هذا كان دأبه على مر الأيام حتى استطاع أن يجر إليه

عدداً كبيراً من الأمراء و الوزراء و كانت سياسة البلاد تمر
بمرحلة دقيقة جداً ، لأنه إذا ثار ضد هذا الملك الجبار ،
الملك الذي ارتد عن الإسلام ، و قد سمعنا قصة ارتداده
و ثورته على الإسلام ، فإن معنى ذلك أن هذه البلاد
ستذهب إلى الهلاك ، فيستولون عليها لأنهم بالمرصاد ، فلم
يوافق على أن يعارض الحكومة بالسيف ، لأن هذه الحكومة
إذا ضعفت فمعنى ذلك أن الهلاك يستولون عليها ، و أنهم
سيخلفون المسلمين ، فكان من الاحتياط و من الحكمة
و كان من السياسة ، ألا تضعف شوكة المسلمين المادية
و العسكرية ، فاقصر على الدعوة ، و اقصر على الرفق
و على الحكمة .

فلما مات هذا الرجل خلفه ابنه و خليفته نور الدين
جهانكير و كان أحسن سيرة و أسلم عقيدة من أبيه الراحل .
طلب السلطان الامام السرهندي إلى مقره ، و أكد
على حاكم سرهند أن يوجه إليه كيف ما استطاع ،
فتوجه الامام مع خمسة من أصحابه و مريديه - كانوا إذ ذاك

عنده - و لما قرع سمع السلطان مجيئى الامام بعث الامراء
والاعيان ليستقبلوه فى الطريق ونصب له خيمة بجوار قصره
و طلبه فى البلاط للمقابلة ، و لما دخل عليه فى البلاط
لم يأت بالآداب و التقاليد التى كان يلتزم بها الوافدون
على السلطان ، فلفت بعض أبناء الدنيا من لا يخاف الله
نظر السلطان إلى أن الامام لم يراع أدب الدخول عليه ،
و لم يأت بالتحية المعتادة للملوك (١) ، فسأله السلطان عن
السبب ، فقال إنى لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التى دعا
إليها الله ورسوله - ﷺ - ولا أعرف غير هذه الآداب ،
فغضب السلطان وقال اسجد لى (٢) ، فقال الإمام ما سجدت
لغير الله قط ، ولن أسجد لغيره أبداً ، فتغيظ السلطان و زاد
غضبه وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه فى قلعة كواليار (٣) .

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً فى البلاط منذ عهد الملك أكبر ، و كانت
تعد من التأدب بالآداب المملوكية و كانت على ثلاثة أصناف ، أولها
الكورنش و هو أن يضع يمينه على جبينه و يطأ على رأسه إلى الصدر ،
و ثانياً التسليم و هو أن يضع ظاهر الكف من يمينه على الأرض ويقوم
و يضع باطنه على الرأس ، و ثالثها السجدة كما يسجد فى الصلاة .

(٢) حضرات القدس ص ١١٧ .

(٣) أيضاً ص ١١٦ .

لقد كانت هذه الإقامة الجبرية في سجن كواليار تنطوي على حكم ومصالح دينية كثيرة تسبب له الحب و القبول في الناس و تزيده زكاه نفس و سموروح ، و إشراق باطن ، فشمّر هذا السجن كسجين مصر عن ساق الجد و الاجتهاد في الدعوة و الارشاد في أولئك المسجونين الذين كانوا معه ، و نادى وراء جدران السجن بأعلى صوته « يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، بما اهتزت له أركان القلعة و ارتجت الجدران ، وسمع صدهاء في الخارج ، يذكر بعض المؤرخين أن آلافا من السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه ، و دخلوا بصحبته و تربيته و إرشاده و دعوته في الاسلام ، و إن مئات من السجناء و المسلمين تابوا على يديه و بايعوه و تمتعوا بصحبته (١) حتى بلغوا درجات الاحسان .

كان لمراقفته دخل كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة في الملك جهانكير و عناية بتعمير المساجد المنهدمة من جديد ، و شغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة ،

(١) كتاب Preaching of Islam (الدعوة إلى الاسلام)
 مؤلفه البروفيسور آرندل Arnold ص ٤١٢ للطبعة الثالث
 . دائرة معارف الأخلاق و الديانات ، ص ٧٤٨ ج ٨ .

و ما ظهر منه عام ١٠٣١ هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية ، و إظهار شعائر الإسلام فيها (١) فقد أمر ببناء أول مسجد في القلعة وذبح البقرة ، و هو يدل على حدوث التحول والتقدم في التدين الذي يمكن معه القول بأنه كان غيضاً من فيض مرافقة الامام السرهندي و صحبته .

و لم يزل الشيخ مذكراً للملك و ناصحاً و مشجعاً يرشده و يوجهه و يرأسه ، و قد طلب مرة من أمرائه أن يرشح له عدداً من العلماء يذاكرهم في الأمور الدينية ، فلما علم الشيخ بذلك قال : لا : إن العلماء إذا اجتمعوا فانهم يتنافسون و يتناظرون ، فهذا يفسد الملك ، وهذا الذي حدث في العهد السابق و أضر بالإسلام ، رجل زاهد في الدنيا ، متعمق في الدين راسخ في العلم ، أفضل من أن يختار عدد من العلماء ، و هم يتصارعون و يتناظرون و يظهرون براعتهم و حذقهم ، و هذا لا أراه لك رأياً ، و كان كما قال ، و لم يزل نور الدين جهانكير يتدرج من صالح إلى أصلح و من حسن إلى أحسن حتى محا كثيراً من آثار أبيه السيئة و أزال كثيراً من بدعه و محاربه للإسلام .

(١) انظر نوك جهانكيري ، ص ٣٤٠ و راجع للتفصيل الباب السابع منه و ليلاحظ أن هذه القلعة كانت قد فتحت على يد قائد هندي .

و خلف الملك نور الدين جهانكير نجله شهاب الدين الملقب بشاه جهان وهو الملك المسلم الخاشع لله ، وهو الذى لما تربع على عرش الطاؤس الذى أنفق عليه الملايين نزل وخر لله ساجداً يثبت عبوديته و إسلامه ويحمد الله على الملك الذى آتاه ، و لم يزل الشيخ و الحبل فى يده فيقبضه و يرخيه ، إذا رأى من المصلحة أن يرخيه أرخاه ، و إذا رأى من المصلحة أن يجره جره .

وخلف الشيخ أحمد ابنه النجيب المتم لعمله و الأمين على دعوته الشيخ محمد معصوم بن أحمد بن عبد الأحد السرهندى (١٠٠٧-١٠٧٩هـ) وله فضل كبير فى تربية السلطان « عالمكير ، أورنك زيب بن شاهجهان الذى يعد من أكبر ملوك المسلمين ، ليس فى الهند فقط بل فى تاريخ الاسلام (يعنى بعد نور الدين و صلاح الدين وبعض ملوك المسلمين الصالحين) هو الذى دون « الفتاوى الهندية ، وجعلها قانوناً للدولة ، و هو الذى طبق الأحكام الشرعية بدقة و عناية ، و حفظ القرآن الكريم ، و جمع أربعين حديثاً و شرحها ،

و له عوائد والتزامات لا يقدر عليها كثير من العلماء والعباد فضلا عن الملوك و السلاطين ، هذا الرجل قلب تيار الحياة و أرسخ قواعد الاسلام في هذه البلاد و ربط مصيرها بالمسلمين وبالعلم و الدين و أزال خطر زوال الاسلام و جلاء المسلمين ، كما وقع في أسبانيا قبل قرنين ، و هذه ناحية من نواحي جهاد الشيخ أحمد و تجديده الأولى .

وبعض النظر عن حياة اورنك زيب الشخصية التي اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متديناً ، متورعاً ، متمسكاً بالشريعة ، عاملاً بها ، محافظاً على نوافل الطاعات ، فضلا عن الفرائض والواجبات ، نكتفي بما يتعلق بالسياسة الشرعية التي في مملكته الواسعة وتنظيم الشعائر الاسلامية وتنفيذ الأحكام الشرعية ، وبماله من أثر عميق في المجتمع الاسلامي الهندي والاصلاح الاجتماعي .

يقول المؤرخ في حوادث العام الثاني من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩ هـ :
« أسس التقويم المتبع في الادارة و الولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على أول « فروردي » التي

تدخل فيها الشمس برج الحمل ، ويزدهر الربيع و كان تاريخ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءاً من شهر « فروردى » ، إلى شهر « اسفنديار » (١) ، وسمى الشهور « شهوراً إلهية » ، و لما كان هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عباد النار ، بدأ السلطان - مراعاة للشريعة الاسلامية - التقويم الهلالى العربى للشهور والسنين لجلوسه و إدارته ومهرجاناته ، و أمر بتقديم التقويم العربى الهلالى على التقويم الشمسى ، وأمر بالغاء الاحتفال بمهرجان نوروز .

و يعلم جميع الناس أن الشهور الهلالية تتغير دائماً ، و تحدث مشاكل و تعقيدات فى استخدام التقويم الهلالى ، و لكن هذا السلطان المتدين لم يبال بمشاكل هذا التقويم ، و انتهى عن الاحتفال بمهرجان « نوروز » ، لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس - أصلاً - و يقرر بداية تاريخ الجلوس الثانى بغيره شهر رمضان ، وهكذا بدأ تقويماً جديداً للجلوس ، و أبدل مهرجان نوروز ، بمهرجان عيد الفطر (٢) .

(١) و هما شهران فى التقويم الايرانى للقديم .

(٢) أيضاً ص ٨٣ - ٨٤ .

و يذكر المؤرخ وقف السلطان للدخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريق غير شرعي ، فيقول :
 « أمر السلطان بالغاء « راهداري » ، -ضريبة الطريق- الذي كان يؤخذ على جميع الحدود و الثغور ، و توضع جميع وارداته في خزانة الدولة ، فكان دخلها و دخل خراج «بلغاري» الذي يسمى « ته بازاري » . . . يزيد على مئات الآلاف و يدخل الخزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي كان دخلها من الحانات و الخمرات و الغرامات و ما يقدم إلى الموظفين و الحكام إظهاراً للشكر و غير ذلك مما يبلغ الملايين من الروبيات ، و كان دخلاً كبيراً للدولة ، (١) .

كانت الحسبة منصباً خطيراً في الحكومات الشرعية ، و شعاراً ظاهراً من شعار الخلافة الإسلامية ، و ألف كثير من العلماء لبيان مسؤوليات هذه الوظيفة المهمة و نوعية العمل فيها كتباً بعنوان « الحسبة في الإسلام » ، و كانت هذه المهمة الخطيرة مهجورة معطلة في الحكومات المسلمة في الهند ، و أحيا السلطان هذه السنة أيضاً .

(١) أيضاً ، ص ٩ .

يقول المؤرخ :

« عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسباً ، وأمره بأن ينهى الناس عن جميع المحرمات ، خاصة عن شرب الخمر ، و تناول الحشيش و جميع المسكرات ، و جميع الفواحش ، و يمنعهم - قدر المستطاع - من جميع الميسئات و المنكرات ، (١) .

و يقول المؤرخ في حوادث و وقائع السنوات من عام ١١ للجلوس إلى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨ هـ .
« كان السلطان يزداد - كل يوم - اهتماماً باجراء الأحكام الشرعية و تنفيذها ، و مراعاة الأوامر و النواهي الالهية ، فكان يصدر فرامين مفصلة لالغاء دخل « راهدارى » و « باندارى » الذى كان يبلغ مئات الآلاف من الروبيات كل عام ، و كان يدخل فى الخزانة السلطانية ، و كان يأمر

(١) أيضاً ص ٩٢ ، ذكر مؤلف « نزهة الخواطر » اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية ، أن عالمكبر نسخ عام ٦٩ ٥١ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب ، لتي كان دخلها السنوى للخزانة السلطانية ثلاثة ملايين روية .

باغلاق الحانات والخمارات، ومكافئ الرية والفساد ، (١) .
و يزيد قائلا :

« أمر السلطان بالغاء الرقص و الغناء و نهى عن
اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، و رؤية طلعه
من نافذة في أعلى القصر - و كان هذا تقليداً من التقاليد
السلطانية المخترعة ، و يسمى « جهروكه درشن » و ترك
نفسه الجلوس على النافذة ، استكاراً لهذا التقليد غير الشرعية ،
كان السلاطين المسلمون في الهند - حسب معتقدات
الهندك و عاداتهم القديمة - يثقون كثيراً بالتنجيم و المنجمين ،
و يعينون الأيام و الشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر
المنجمون في ضوء علم التنجيم ، ففضى السلطان عالمكبر على
هذه العقيدة و العادة المتبعة ، و أهم من ذلك أن الأحكام
القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام و الأمراء و أحكامها
فحين السلطان عالمكبر قضاة شرعيين و أعطاهم السلطة المطلقة
فما يتعلق بالقوانين الشرعية .

« الشعراء و المنجمون الذين كانت لهم مكانة و اعتبار
في الدولة ، (خاصة في عهد السلطان شاهجهان) منعوا من

(١) أيضاً ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ باختصار .

ممارسة أعمالهم و عين القضاة للشؤون الداخلية و المرافعات
الجزئية و الكلية، و حصل لهم من التمكن و الاستقلال في
شؤونهم ما بعث الأمرء و أعيان الدولة على الغبطة
و الحسد ، (١) .

أما الناحية الثانية من نواحي التجديد فقد عارض الشيخ
أحمد بن عبد الأحد السرهندي البدع و العقائد الشركية و الشعائر
الجاهلية المجوسية و الفلسفة اليونانية، أشد المعارضة، وهو الذي
شن الحرب على فكرة وحدة الوجود التي كان لها سحر عجيب
على العقول و النفوس ، و نفوذ عميق في العلوم و الآداب،
و كون معسكراً كبيراً له قيمته و أهميته إزاء معسكر وحدة
الوجود الذي كاد يكون المعسكر الوحيد في الهند و في البلاد
العجمية ، فعارض هذه الفكرة معارضة شديدة و حاربها حرباً
شعواء لا هوادة فيها و لا رفق .

و أنا أقرأ لكم طرفاً من إحدى رسائله الخالدة على
سبيل المثال :

(١) أيضاً ، ص ٢٧١٧ ، و راجع كتاب كذلك (Aurangzeb & His Age)
لمؤلفة للفاضل ظهير الدين الفاروق ، أورتك زيب و عصره ، الباب
بمنوان A. Reformer .

كتب إليه أحد تلاميذه أن الشيخ عبد الكبير النيني يعتقد أن الله سبحانه و تعالى يعلم الكليات و لا يعلم الجزئيات ، و هو من ضمن الأفكار و العقائد التي تسربت في المسلمين عن طريق الفلسفة اليونانية ، فكتب إليه يقول: « يا أخي ، إنى لا أستطيع أن أصبر على سماع هذه الخرافات و إن عرقى العمرى ينبض ، وإن الدم الفاروقى الذى يجرى فيه يهور (١) كان قائل هذا عبد الكبير النيني أو الشيخ ابن عربى الطائى ، إن الفتوحات المدنية (٢) أغتنا عن الفتوحات المكية (٣) نحن نريد محمد العربى لا الشيخ ابن عربى ، إننا من أتباع النصوص (٤) لا الفصوص (٥) هذا مثال من الأمثلة الكثيرة .

(١) لا ينسى أن الشيخ أحمد يتهى نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) .

(٢) يعنى التعليقات النبوية و الأحاديث الصحيحة .

(٣) كتاب مشهور للشيخ ابن عربى .

(٤) يعنى نصوص الكتاب و السنة .

(٥) يشير إلى نصوص الحكم للشيخ ابن عربى و هو يتضمن أشياء الكثير من مثل هذه الأقوال الغريبة .

و الواقع أن عمله التجديدي الأساسى الذى تدور حوله
سائر أعماله الإصلاحية التجديدية ، و منبعه الأصيل الذى
تفجر منه ينبوع جميع مآثره الإصلاحية و جهوده الثورية ،
و تتحول إلى نهر يجرى فى العالم الإسلامى كله ، هو ذلك
العمل الإصلاحى العظيم الذى تجلى فى إعادة الثقة و الايمان
إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية بخلود الرسالة المحمدية
و حاجة الناس إليها إلى أن يرث الله الأرض و من عليها ،
و ترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة .

و يقول هو نفسه فى رسالة وجهها إلى ابن شيخه محمد
عبد الله و هو يصور هذا الوضع المكفر .

« لقد كثرت البدع و المحدثات فى هذه الأيام كثيرة
فاحشة ، حتى ليخيل للناظر أن بجرأ من الظلمات تتلاطم
أمواجه ، و أن نور السنة فى هذا البحر الهائج المائج يتلاؤ
تلاؤ يراعات منتشرة فى ظلمة الليل البهيم . »

لقد كان معين الإسلام الصافى فى الهند - التى لم يزل
أساس الإسلام فيها ضعيفاً لأسباب و عوامل تاريخية مختلفة ،

وكانت موطن شعوب مشركة وديانات وثنية - تسرب إليه المخلفات والرواسب من الديانات السائدة ، وكان يخشى أن يغيب هذا الينبوع في الظلمات المتراكمة ، حتى يضل الخريت و يحار الدليل .

و لذلك لما بدأ الامام السرهندي رحلته التجديدية وكانت أول خطوة خطاها على طريق الانبياء و على نفس المنهج الذى سار عليه الرسل ، هي الخطوة نحو إصلاح العقائد و تصحيح الاتجاه ، فقد كان إياه عن سجدة التحية أمام السلطان جهانكير و رفضه لهذه البدعة الشنيعة عنواناً لامعاً فى تاريخ إصلاحه و تجديده ، وقد تناول فى رسائله التى وجهها إلى مختلف أصحابه و أتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوب واضح مبين ، و عبارات موجزة جامعة رصينة ، و قدم دلائل وبراهين على وحدانية الله - تعالى - وأنه هو المستحق للعبادة وحده ، بأسلوب يدل على رسوخه وعلو كعبه فى هذا العلم ، و قام يدحض الشرك و مظاهره و تقاليد و نهي أصحابه و أتباعه نهياً شديداً عن الأعمال الشركية و العادات

الجاهلية و تقاليد الكفار من اليهود و النصارى و المشركين ،
إذ أنه لا بداية لعمل الاصلاح و التجديد إلا به ، فضلا
عن نهايته و كماله .

وهنا مقتطفات من رسالة مسهبة كتبها إلى امرأة سالحة
بايعته وتابت على يده ، وقد تضمنت هذه الرسالة الرد على
عامة ما يتلى به الجهلاء من المشركين خصوصاً النساء منهم ،
يقول فيها .

« إن تعظيم مظاهر الشرك وأعياد الجاهلية من أعظم
أنواع الاشرار بالله - عزوجل - و أن من يعتقد بصحة
دينين و صلاحيتهما في وقت واحد فهو مشرك ، وأن من
يعمل بأحكام الاسلام وأعمال الكفر والشرك فهو مشرك ،
و لا يتم الاسلام إلا بالبراءة من الشرك ومحاداته ومعاداته ،
إن التوحيد هو الاشمئزاز و النفور من كل شائبة من
شوائب الشرك » .

و يقول رحمه الله : « إن الاستعانة بالطواغيت
و الأصنام في دفع الأمراض وشفاء الاسقام - التي راجت

في المسلمين وعمت في دهماتهم - عين الشرك و الضلال ،
و أن طلب قضاء الحاجات من الأحجار المنحوتة وجود
صرح بالله - تعالى - وعين الكفر ، يقول الله - تبارك
و تعالى - مبيناً حال بعض الغواة الضالين :

« يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت و قد أمروا أن
يكفروا به ، و يريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » .
و إن كثيراً من النساء - لغاية جهلن و ضلالهن -
يطلبن قضاء حوائجن من غير الله و يسألن بأسماء ما أنزل
بها من سلطان دفع البليات وكشف الكربات ، إنهن لأسيرات
في أغلال الشرك و طقوسه و تقاليد .

و تتجلى هذه العقائد الشركية و تشاهد هذه الأعمال
و تقاليد الجاهلية - بصفة خاصة - عند ما يتشر مرض
الجدري (الذي يعرف في أوساط النساء في الهند باسم
« سيتله » ، (١) حيث تقع جميع النساء في الجهل المطبق ،

(١) اسم إلهة من الالهات المفروضة المتخلة عند وئى الهند ، يعتقدون أنها
تسبب الجدري ، و لا يرتفع هذا الوباء ، و لا يشفى المريض إلا إذا
أرضيت هذه الالهة بالنذور و القرابين .

و الكفر الصريح ، ويأتين بأعمال شركية ، وقلبا تجد امرأة
تتقى دقائق هذا الشرك ، ولا تقدم على أى نوع من أنواع
الشرك بهذه المناسبة ، اللهم إلا من عصم ربك .

(ص ٢٢٥ - ٢٢٦)

و قد كانت أكبر أغلوطة في هذا الصدد ، أغلوطة
البدعة الحسنة ، فكان الناس قسموا البدعة قسمين البدعة
السيئة ، و البدعة الحسنة ، و كانوا يقولون : إنه ليس كل
بدعة سيئة فكثير من البدع حسنة ، استثيت من إطلاق
حديث « كل بدعة ضلالة » .

إن ما قام به الامام السرهندي من معارضة شديدة
و استنكار قوى لهذا التقسيم المحدث للبدعة الحسنة و البدعة
السيئة في ثقة وقوة و اعتماد و بأسلوب علمي و استدلال
موضوعي ، لا يوجد له نظير في كثير من الأقطار والأدوار
في تاريخ الإصلاح الديني .

و هكذا استطاع أن يعيد إلى الاسلام مركزه من
جديد في الهند ، ويعيد إلى السنة اعتبارها ويعيد في المسلمين

الثقة بالمصادر الصحيحة و بالكتاب و السنة ، و أن يكون
للإسلام اتفاضة في الأقطار الإسلامية من شبه القارة الهندية
إلى أفغانستان و تركستان ، إلى العراق و سوريا و تركيا ، و ينهض
جيل جديد من دعاة الإسلام الصحيح و العقيدة السليمة
البعيدة من شوائب الفلسفات و الانحرافات و تأثير الديانات
و الحضارات الجاهلية ، و نشأت جبهة قوية و اعية لمعارضة البدع
و المحدثات ، و دعوة سافرة إلى العمل بالشريعة المطهرة
و السنة السنية البيضاء ، و إقبال عام على الإنابة إلى الله
و تزكية النفوس ، و تهذيب الأخلاق ، و تجديد صلة
العبودية بالله تعالى في ضوء الكتاب و السنة .

و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله

ذو الفضل العظيم .

